التـــراكـــم العالمى (*)

١٤٩٢ ــ ١٧٨٩

تأليف : اندريه جندر فرانك

عرض : احمد عبد الله زايد (**)

كثيرة تلك الدراسات التاريخية التى تهتم بسرد أحداث تاريخية مفصلة فى فترة تاريخية بعينها وفى مكان معين . ولكن قليلة تلك الدراسات التى تربط بين احداث تاريخية مختلفة فى أماكن عـــديدة من خلال رؤية نظرية لمســـار التاريخ وتطوره والعوامل الفاعلة فى هذا التطور . ويكشف تاريخ العلـــوم الاجتماعية عن أن اشهر الاعمال واكثرها بقاءا مع الزمن . هى تلك الدراسات التى تنطلق من منظور شامل لا يهتم بسرد الاحداث الفريدة أو وصف الظواهر المجتزأة ، وانما يهتم بالربط بين كم هائل من الاحداث والظواهر لتدعيـــم وجهة نظر معينة حول بناء المجتمع وتغيره . ويكفى ان نشير فى هذا السياق الى أعمال كارل ماركس ، وماكس فيبر ، وأرنولد توينبى ، وآدم سميث .

والكتاب الذى نعرضه هنا يضع نفسه بجدارة ــ على صغر حجمه ــ وسط هذا النوع من الاعمال . واذا كان أى من هذه الاعمال قد طور موقفا نظريا محددا يختلف عن نظيره فى الاعمال الاخرى أو يتشابه معها ، فان كتاب فرانك من التراكم العالمى ينطلق من موقف نظرى محدد يرتبط بتراث نظرية التبعية الذى ساهم فرانك نفسه فى تأصيله . ظهـــرت نظرية التبعيـــة فى الستينات لتدحض نظرية التنمية الغربية ، وتقدم أساســـا جـــديدا لتفسير ظاهرة التخلف فى العالم الثالث يقوم على قضية أساسية مفادها ان علاقـــة التبعية والاستغلال التى تعرض لها العالم الثالث من جانب الدول الراسمالية المتقدمة لم تؤد الى أى شكل من اشكال التنمية ، وانما ادت الى مزيد من التخلف فى هذه البلدان التابعة يقابله مزيد من التنمية والرفاهية فى البلدان الراسمالية المتقدمة . وهذا أمر منطقى طالما ان الفائض المنتج فى البلـــدان

---

* Andre Gunder Frank, World Accumulation 1492 – 1989, The Macmillan Press LTD., London, 1978.

(**) مدرس بقسم الاجتماع ــ كلية الآداب ، جامعة القاهرة .

التابعة — أيا كان شكل انتاجه — ينقل باستمرار الى مركز العالم الرأسمالى المتقدم . وقد اهتم فرانك فى دراساته الصادرة قبل هذا الكتاب بتحليل هذه القضية الاساسية وما يرتبط بها من قضايا أخرى مع الاشارة الى مجتمعات امريكا اللاتينية التى يوليها اهتماما خاصا . وهنا تأتى أهمية الالمام بأعمال فرانك السابقة ، والالمام بتراث نظرية التبعية كما تطور فى أعمال كتاب آخرين وخاصة أعمال سمير امين وعمانويل والشتين قبل قراءة الكتاب الذى نعرض له هنا .

فقد ظهر كتاب « التراكم العالمى » كمحاولة لتطوير وتنقيح القضايا النظرية المتعلقة بالتبعية ، وتدعيمها بشواهد تاريخية عديدة تخرج عن نطاق امريكا اللاتينية لتشتمل العالم باسره بمجتمعاته المتقدمة والمتخلفة على حد سواء . وقد كان ذلك مطلبا ضروريا لنظرية التبعية طالما انها تفترض ان العالم وحدة لاتتجزأ وان تاريخه واحد من حيث أن العملية التاريخية التى حكمت تطوره واحدة ، واعنى تنمية التخلف فى المجتمعات التابعة ، وتنمية التنمية فى المجتمعات الرأسمالية المتقدمة .

وينقلنا ذلك مباشرة لموضوع الكتاب . فاذا كان التخلف والتنمية وجهين لعملة واحدة ، فان نقل رأس مال الدول الخاضعة وتراكمه فى الدول الرأسمالية هو العملية الخفية المسببة لكل من التنمية (فى مركز العالم) والتخلف (فى التوابع) . فتاريخ التراكم هو تاريخ التنمية والتخلف ، وتاريخه هو تاريخ النسق الرأسمالى العالمى وما طرأ عليه من تحولات . ويتتبع الكتاب بدايات عملية التراكم وتطوره . وما أحاط به من محاولات لاكتشاف العالم وغزوه ، ومن ازدهار وكساد ، ومن ثورات وحروب ، من توسع فى طرق التجارة وتغير فى اتجاهاتها ، ومن تحولات اجتماعية داخل النسق العالمى بمراكزه وتوابعه ، بحيث بدأ التاريخ وكأنه سلسلة متصلة الحلقات من كل هذه العمليات المختلفة والمتناقضة ، ولكنها تؤدى فى النهاية الى نتيجة واحدة : مزيد من تراكم رأس المال فى مركز العالم ، ومزيد من استنزافه ونهبه فى التوابع .

يشتمل الكتاب على ستة فصول وخاتمة . جاء الفصل الاول بعنوان « التوسع فى القرن السادس عشر » . ويبحث فى الظروف التاريخية التى ادت الى ظهور النسق الرأسمالى العالمى ، وبداية عملية التراكم . ولاشك

أن التاريخ الذى بدأ منه فرانك تحليله له دلالته الخاصة . فهو تاريخ اكتشاف العالم الجديد ، أو بالاحرى تاريخ التوسع الاوربى ناحية الغرب . وهو أمر ترتب عليه تغيرات كثيرة فى العالم كله (فى أوربا الشرقية ، وحوض البحر المتوسط ، وافريقيا ، والهند) . ومن الطبيعى أن يبدأ فرانك هذا الفصل بتحليل الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية السابقة على التوسع الاوربى سواء فى أوربا (تحول النظام الاقطاعى وظهور الحاجة نحو اكتشاف طرق جديدة للتجارة ومصادر جديدة للمعادن الثمينة) ، أو فى بقية أجزاء العالم (الامبراطوريات التيمية فى العالم الجديد ، والامبراطوريات والحضارات فى العالم القديم) . ثم بدأ فى شرح عملية التوسع نفسها ، فربط بين اكتشاف العالم الجديد وبين حاجة أوربا الى طرق تجارة جديدة الى الهند ، وحاجتها فى نفس الوقت الى النقود والمعادن الثمينة . ولقد ترتب على اكتشاف العالم الجديد عملية تراكم بدائى فى أوربا كانت الاساس الذى نهضت عليه الرأسمالية فى مرحلتها التجارية الاولى . وهنا حسم فرانك قضية نظرية أثارتها نظرية التبعية منذ ظهورها ، تلك هى قضية المؤثرات الخارجية والداخلية فى تحول النسق الى نسق رأسمالى . واضطر فرانك هنا الى التحدث عن علاقة جدلية بين هذين النوعين من المؤثرات ، طارحا القضية التالية : تصبح العوامل الخارجية على درجة عالية من الاهمية عندما تنشط التجارة ، والعكس بالعكس . ودلل على ذلك من خلال بعض الشواهد التاريخية . فقد أدى ازدهار التجارة الى تغيرات نظامية فى كل من أوربا الغربية والشرقية وأجزاء أخرى من العالم فى القرن السادس عشر ، وعندما تعثر التوسع التجارى فى القرن السابع عشر بدأ الكساد فى أوربا واحتلت التغيرات فى علاقات الانتاج الداخلية أولوية فى عملية التحول .

وتناول الفصل الثانى هذا الكساد الذى ساد فى القرن السابع عشر ، فرد مظاهر هذا الكساد الى تدهور أسبانيا وايطاليا ، وتدهور الاحوال فى الامبراطورية العثمانية ، ونشوب الحرب فى ألمانيا ، وجميعها أحداث ليست منفصلة وانما تعبر عن أزمة عالمية واحدة . ويفهم فرانك هذه الازمة على أنها حل ضرورى تطلبه التطور الرأسمالى حيث كانت أساسا قام عليه التطور فى المرحلة اللاحقة من التراكم الرأسمالى فى القرن الثامن عشر .

وفى ضوء هذا الفهم يخصص فرانك فترات مستقلة من هذا الفصل لمعالجة مظاهر الكساد فى مناطق محددة . فتحدث عن الكساد فى حوض البحر المتوسط ، والكساد فى شمال غرب أوربا ، وتأثير ذلك على التطور فى آسيا وافريقيا والامريكتين . وفى الفترة الاخيرة من هذا الفصل يتحدث فرانك عن تأثير هذا الكساد على التحولات التى طرأت على النسق الرأسمالى ،

ويعود مجددا الى قضية المؤثرات الخارجية والداخلية . فاذا كان النمـــو الرأسمالى قد تأثر فى القرن السابق بتراكم راسى المال المنقول من المستعمرات فان النمو فى هذا القرن قد تم أساسا فى علاقات الانتاج والانماط الداخلية له . فالعوامل الخارجية التى تسبب التحول ــ التجارة فيما وراء البحار ونقل الفائض وتراكمه ــ قد اصابتها أزمة مؤقتة .

وجاء الفصل الثالث ليعالج التوسع الذى بدأ من جديد فى القرن الثامن عشر وما اثاره هذا التوسع من حروب وعداوة وتنافس بين الدول المتوسعة . ولقد تم تمويل هذا التوسع الجديد من خلال المعادن النفيسة التى تم جلبها من عملية تجديد انتاج الفضة فى المناطـــق التعدينية القديمـــة فى أمريكـــا الاســبانية وفى بعض الاحيان من مناجم الذهب فى البرازيل البرتغالية .

وكان هدف هذا التوسع التنافسى بين الدول الرأسمالية مزيد من تراكم المال . وقد استلزم ذلك ابداع اساليب جديدة للاستغلال وتطوير طـــرق التجارة . وقد حدث ذلك بالفعل حيث تطورت طرق التجارة بين جزر الهنـــد الغربية ، واوربا وافريقيا ، وامريكا الشمالية . وحملت خطوط التجارة هذه افواجا من العبيد ليتم زرعهم فى العالم الجديد من اجل انتاج السكر وغيره . ولقد عالج هذا الفصل كل هذه الموضوعات بالتفصيل . فهناك حديث مفصل عن الحروب التى نشبت بين دول اوربا بسبب التنافس على التوســـع واقتسام العالم ، وآخر عن عمليات البحث عن الذهب فى البرازيل ، وثالث عن زراعة السكر والعبيد فى البحر الكاريبى ، ورابع عن تجارة العبيـــد فى افريقيا . واكد فرانك فى هذا الفصل على أن التراكم الذى حدث فى هـــذا القرن هوالذى أحدث التحول الرأسمالى الحقيقى المتمثـــل فى الثـــورة الصناعية ، وذلك على حساب تخلف الدول التى نهبت منها هذه الاموال او ساهمت فى انتاجها .

وخصص فرانك الفصل الرابع لدراسة التغير فى المجتمع الهنـــدى وآسيا بصفة عامة فى اطار عملية التحول العالمى . فبدأ بمناقشة الغـــزو الاوربى لآسيا من خلال الشركات التجاريـــة ، ويعرض للآراء المختلفـــة حول نمط الانتاج الذى كان سائدا فى آسيا فى فترة ما قبل الثورة الصناعية . ثم يركز حديثه عن الهند فيؤكد على اندماج الهند فى النسق الرأسمالى فى الفترة ما بين ١٧٦٢ ــ ١٧٨٩ التى سبقت الثورة الصناعية ، ويربط بين هذا وبين التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى حدثت فى الهند وعلاقة ذلك بعملية التراكم البدائى على مستوى العالم . ويهتم فـــرانك

ببعض النقاط التفصيلية فى هذه العملية فيفرد فقرة خاصة عن نهب البنغال عن طريق شركة الهند الشرقية عام ١٧٩٣ ، واخرى عن التغيرات التى تركتها هذه العملية على الزراعة فى الفترة من ١٧٥٧ — ١٧٩٣ ، رثالثة للتجارة والحرف ، ورابعة لمشروعات الاستثمار الخاصة .

ويغطى الفصل الخامس الفترة من ١٧٦٢ — ١٧٨٩ وهى تميزت فى تطور النسق الرأسمالى العالمى والتراكم العامل داخله بكساد ظاهر . ولكنها كانت فترة حاسمة فى تاريخ البشرية حيث ظهرت مجموعة من الاحداث ادت الى ثورة فى العالم كله : ظهور عصر التنوير فى أوربا ؛ ظهور الاختراعات الميكانيكية التى صاحبت الثورة الصناعية فى انجلترا ، الثورة الفرنسية ، الحرب الامريكية واعلان الاستقلال ، بداية الهجوم على تجارة الرقيق ، التعمق فى غزو الهند ونهبها ، ادخال تجارة الافيون فى الصين ، اكتشافات أوربا فى المحيط الهادى والتوسع الروسى جنوبا وشرقا ، تيقظ الامبراطورية العثمانية والاسبانية ، وباختصار ظهور الرأسمالية الصناعية كما نعرفها اليوم . وكان الكساد قد اعطى للنظام الرأسمالى دفعة فى الداخل والخارج ادت الى ان يقف على قدميه من جديد .

وفى الفصل السادس يتحدث فرانك عن الثورة التجارية فى القرن الثامن عشر حيث بدأ التوسع فى طرق التجارة وتنويعها وتغيير اتجاهاتها . ويعرض فرانك هنا للتغيرات التى طرأت على طرق التجارة وما ترتب على ذلك من أرباح فى عملية تراكم رأس المال فى شمال غرب أوربا (خاصة بريطانيا) وفى الجزء الشمالى الشرقى من امريكا . ولقد ساعدت هذه الثورة فى طرق التجارة على النمو المتعاظم للصادرات المصنعة الامر الذى ادى الى ازدهار الصناعة ، كما ارتبطت التجارة بالحروب ارتباطا وثيقا ، ولكنها خلقت ثورة فى عملية التراكم على اى حال .

وفى النهاية يعرض فرانك فى خاتمة الكتاب لبعض القضايا النظرية التى يثيرها تحليل النسق العالمى الرأسمالى . فيتحدث عن اشكال التراكم وارتباط كل شكل بمرحلة تاريخية معينة ؛ وعن علاقات الانتاج غير المتكافئة داخل النسق الرأسمالى وكيفية تحويل قيمة الاستعمال use value الى قيمة تبادلية exchange value من خلال التداول والتراكم وتأثير ذلك على تحول علاقات الانتاج غير المتكافئة ، وعن مراحل تطور النسق العالمى وأزماته ، وعن الصراع الطبقى داخله .

وبعد هذا العرض لفصول الكتاب فان فرانك يؤكد هنا — مثلما يؤكد فى دراساته السابقة — على ان علاقات التبعية وما يصاحبها من تراكم فى رأس المال فى مركز العالم لا تؤثر فقط على تشكيل البناء الاقتصادى المتخلف لبلدان العالم الثالث ، وانما تؤثر وتشكل ثقافة هذه البلدان وأيديولوجياتها ونظام الدولة بها ولكنه لم يقدم فى هذا الكتاب — ولا فى كتبه السابقة — تحليل عميق للمستويات الثقافية والايديولوجية والسياسية لمجتمعات العالم الثالث ، الامر الذى يجعل نقاده يتهمونه بانه من انصار الرد **الاقتصادى** . ترى هل سيسد فرانك هذه الثغرة فى اطاره النظرى ام انه سيتركها مجالا مفتوحا للبحث امام غيره من الباحثين ؟ المستقبل وحده هو الكفيل بالاجابة على هذا السؤال .

obeikandl.com